"...عنِّي تعلَّقَ مِنْ يدَيْه..."

بقلم : أدما حبيبي

لقد أقمتُ المدينة وأقعدتها بفعل شروري العظيمة. سرقت في كل مرة سنحت لي الفرصة، ومددت يدي إلى كل ما لا أملكه. أخذت كل ما وقعت عليه عيناي وجمعته في بيتي وتحت سقفي. أنا لا أملك شروى نقير. وكل ما لدي الآن هو من جمع يدي هاتين اللتين تعوَّدتا على النشل والاحتيال والنصب والسرقة.

والآن، أجل الآن دقت ساعة الحقيقة، فقد أُلقي القبضُ علي وأُودعتُ السجنَ المظلم البارد منتظراً تحقيقَ الحكم فيَّ. و في كل مرة أسمع فيها خطوات الحارس أنتفض من مكاني كالقط المرتعد. فاليوم بات قريباً حين سيُنفَّذ فيَّ حكم الإعدام . آه، ماذا فعلت ولماذا تصرفتُ على هذه الشاكلة؟ ولِما كل هذه الجرائم التي ارتكبتها؟ لما؟ أين المناص ، أين الخلاص في سجن كهذا أيـن ؟ آه إنني أحس أن يداً تريد خنقي ، فالوقت يقترب وتقترب معه ساعة الانفصال والفراق.

هـ... هوذا الحارس يضع المفتاح الكبير في القفل، ها هو يفتح الباب الثقيل ببطء... آه أرجوك أرجوك.. دعني أموت هنا. لا، لا أريد أن أذهب.. وقبعتُ في الزاوية المظلمة أرتجف.. فصرخ فيَّ الحارس وقال: أين أنت أيها اللصُّ اللعين؟ إنني لا أراك... فناديته من زاويتي الباردة وقلت: أنا .. أنا هنا . أتيتَ لتنفذ فيَّ حكم الإعدام؟ أجل جئتَ لتجرَّني إلى الموضع المشؤوم حيث يسمِّروني على الصليب؟ وهناك سأقاسي آلام الموت المبرِّحة؟ آه.. ما أتعسني ما أشقاني..

سَخِر مني الحارس وقهقه ضاحكاً بصوت مزعج ودنا إليَّ ووضع السلاسل في يدي وجرَّني إلى هناك حيث الصليب الخشبي ينتظرني. مشيت بخطى وئيدة أجرُّ جسدي المنهك جرّاً دون أن أقاوم . فلقد خارت قواي أمام تنفيذ قرار الإعدام فيَّ بعد لحظات. ولمَّا وقعتُ على الأرض ركَلَني الحارسُ برجله كما يُركَل الحيوان. أحسستُ برجله تغوصُ في خاصرتي فزادت آلامي ورحت أصرخ وأبكي بكاءً لم أفعله قطُّ في حياتي.

أهو بكاء الندم على ما فعلَتْه يداي هاتان؟ أم أنَّه بكاء الخوف من الموت؟ وأخذتْني هواجس عديدة لم أعهدها مسبقا. وما هي إلا لحيظات حتى وُضعتُ أنا وزميلي فوق صليبين من خشب. فكلانا في الجُرم سيَّان. أنا عن اليمين وهو عن اليسار. صرخت أنا نفسي صرخة دوَّت في كل الأرجاء لما بدأ الجنود الرومان بدق المسامير في يدي ورجلي. أحسست أنَّ عظامي بدأت تتهشم

حقوق الطبع محفوظه لخدمة الاذاعه العربية ٢٠٠٦-٢٠٠٣
Copyright 2003-2006 Arabic Broadcasting Service

ولحمي يتمزق وراح دمي ينزف نزفاً. وكل هذه الآلام لم تكن لَتُقارَن بالآلام المبرِّحة التي شعرت بها حين رفعوا الصليب فهَوى ثقلُ جسدي كله على يدي وصدري. عندها تصبَّب العرق مني، وبدأت أتنفس بصعوبة لا توصف وكدت أفقد الوعي. وبينما أنا على هذه الحال تناهى إلى مسمعي استهزاء الرؤساء وتهكُّمهم بملك اليهود. أجل ، الرجل الذي صلبوه في الوسط. إذ لم يصلبوه فحسب ، بل وضعوا على جبينه إكليلاً من شوك غرزوه بقسوة وفظاظة ليس لهما مثيل. كما علقوا يافطة فوقه تقول: **هذا هو ملك اليهود.** أما يسوع، وهذا اسمه، فقد نطق بألفاظٍ عجيبة غريبة على مسامعي. إذ سمعته يطلب من الله الغفران لكل مسيئيه ومعذِّبيه. قال:" **يا أبتاه اغفر لهم لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون.**"

على الرغم من آلامي وأنيني رحت أفكر في هذا الإنسان العجيب الذي لم يرتكب حماقة أو جُرماً كما فعلتُ أنا وزميلي. وقلت بنفسي أيُعقل أن يغفر لصالبيه! فهو يطلب من الله الغفران لهم لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون. وكأني به يعطيهم عذرا . فيَنْشدُ الصفح لهم . لكنني بقيت أتساءل دون أن أجد لتساؤلي جواباً .

وبينما كنا في هذه الحال المزرية من الألم والوجع، سمعنا الرؤساء يتهكَّمون بيسوع ويقولون:" **خلَّص آخرين أما نفسه فما يقدر أن يخلصها.**" وسخر منه الجنود الرومان أيضاً فقدموا له خلاً بدل الماء وقالوا له:" **إن كنت أنت ملك اليهود فخلِّص نفسك.**" وما هي إلا لحظات حتى أُصيب هو الآخر ، رفيقي اللص المحترف مثلي، بداء السخرية ذاته ، السخرية بملك اليهود. فصار يقول مجدفاً:" **إن كنت أنت المسيح فخلص نفسك وإيانا.**" عندها ذاب قلبي في أحشائي وتعجبت من كلامه هذا وهو المشرف على الموت في أية لحظة. فقلت له بنَفَسٍ متقطِّع:" **أوَلا أنت تخافُ الله إذ أنت تحت هذا الحكم بعينه؟ أما نحن فبعدلٍ لأننا ننال استحقاق ما فعلنا. وأما هذا فلم يفعل شيئا ليس في محله.**"

لم ينبس زميلي المحترف ببنت شفة، بل وبعد برهة قصيرة غاص في غيبوبة الموت المرعبة. نعم انتابتني قشعريرةٌ في داخلي، فبأيِّ حق يستهزئ زميلي بهذا المسكين الذي عُلِّق في الوسط بيننا ؟ ياللوقاحة، إنه يتحداه أيضاً.

أما أنا فصارت خطاياي تمرُّ أمام ناظريْ واحدة تلو الأخرى. فازددت خوفاً وارتعبت. عندها تذكرت .نعم تذكرت... فنظرت بروح نادمة، وقلب تائب إلى المسيح ، الذي سمعته بأذنيَّ يطلب الغفران لصالبيه ، وبكل انكسار وانسحاق قلت له ونَفَسي يتسارع: "**اذكرني... يارب .. متى .. جئتَ في ملكوتك...**" وما أن أنهيتُ كلماتي هذه حتى سمعته يقول لي بلهجة واثقة أكيدة:" **الحق أقول لك إنك اليوم تكون معي في الفردوس.**"

حقوق الطبع محفوظه لخدمة الاذاعه العربية ٢٠٠٦-٢٠٠٣
Copyright 2003-2006 Arabic Broadcasting Service

غمرني عندها فرحٌ عجيب ، عمَّ كياني كله. فها هو ينبئني بكلمات لم أسمعها في حياتي كلها. اليوم أكون معه في الفردوس؟ أنا اللص الرهيب والمجرم القاتل أكون معه في الفردوس في دار النعيم؟ يا للعجب! ما هذا الوعد العظيم. ورحت أحلم بتحقيق هذا الوعد طالما أنه أضحى قريباً وقريباً جداً. وابتدأ جسمي يرتعش ، ورأيت الجنود يقتربون مني وفي أيديهم السياط الكبيرة. حاولت أن أفوه بكلمة فلم أستطع. فضربني واحد منهم ضربة واحدة على ساقيَّ فهشمهما تهشيماً. وسمعت صوتي يتحشرج فشهقت بعدها شهقةً كانت هي...... **الأخيرة...**

ولكن ، لمَّا فتحتُ عينيَّ نظرتُ، فإذا بي في مكان جميل هادئ ، كله نور وإشراق. وموكب من الملائكة يستقبلني بابتهاجٍ ليس له مثيل. ورأيتُ أفواجاً أفواجاً تأتي لترحب بقدومي والفرح بادٍ على محياهم جميعاً. وبينما أنا مأخوذ بهذه المناظر الباهرة ، إذا بي أسمع إيقاع الموسيقى الجميل الذي بدأ يصدح ويعم المكان، موسيقى لسيمفونية رائعة لا مثيل لها . فسألتُ ما الداعي وما المناسبة لكلِّ هذه الاحتفالات؟ قالوا : نحن نستعد لقدوم الملك العظيم الذي أتمَّ مهمته وأكمل رسالته على أعظم وجه. فالتفتُّ لأرى مَن القادم؟ فإذا بي أرى " **مثل ابن إنسان أتى وجاء إلى القديم الأيام فقربوه قدامه. فأُعطيَ سلطاناً ومجداً وملكوتا لتتعبَّد له كلُّ الشعوب والألسنة سلطانه سلطان أبدي ما لن يزول وملكوته ما لا ينقرض.**" غمرني للوقت فرح عجيب ورحت أنا اللصُّ التائب أترنم ترنيمة الخروف المذبوح الذي غَفر بنفسه خطاياي وسَتر كل عيوبي. وفهت عندها بكلام لم أعهده من قبل في حياتي:

يا شعبُ قد نال النصيب

أعطوا الكرامة للحبيب

عن حمده لا تسكتوا

هاتوا العطور والسكيب

قولوا تألم واحتمل

أعطى الخلاص والأمل

حقوق الطبع محفوظه لخدمة الاذاعه العربية ٢٠٠٦-٢٠٠٣
Copyright 2003-2006 Arabic Broadcasting Service

جاء إلينا كالحمـــــــل

مع أنـــــه الله العجيب

غنوا معي ولَّى القصاص

قولوا به تمَّ الخـــلاص

غاصت شروري كالرصاص

في لجُةِ اليمِّ الرهيب

مَنْ عُلِّقَ الكونُ عليـــه

عني تعلَّق من يديـــــه

تسرَّب الموتُ إليـــه

مع أنه الحيُّ الرقيـــب

التوقيع: أخوكم اللصُّ التائب

حقوق الطبع محفوظه لخدمة الاذاعه العربية ٢٠٠٦-٢٠٠٣
Copyright 2003-2006 Arabic Broadcasting Service